حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٥ (عدد إبريل – يونيه ٢٠١٧)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الليل في الشعر الرومانسي (دراسة تحليلية نقدية)

منى محمد عبدالله أبوهملاء *

أستاذ الأدب والنقد المساعد– قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الملك فيصل

المستخلص

شغل الليل منزلته المنتظرة في القصائد العربية؛ وهو ما يؤكد على كونه من الموضوعات الشعرية الملهبة والملهمة لمخيلة المبدع العربي، وقد تناوله شعراء العرب القدامى منهم والمحدثون، وظهر الليل أكثر ما ظهر في شعر الرومانسيين، ولم لا؟ وهو ملتقى المحبين إذا التقوا، و متلذذ ذكراهم إذا افترقوا، وقد انسابت ظواهر الطبيعة انسيابا متغلغا، لا ينفك عن الأدب الرومانسي، ومن أبرز سمات الرومانسية إسقاط معاناتهم، وخلع مشاعرهم على الطبيعية؛ فيصبحان هم وهي كيانا واحدا، فأنت تراه بعين الشاعر الرومانسي، على غير ما تراها عند غيره؛ إذ كادوا أن يتفقوا في نظرتهم لليل، على أنه هو الملهم والصاحب ومثير الإبداع والخلق الأدب؛ فجاءت قصائده مطعمة بذكر الليل وآثاره عليهم، فجاء هذا البحث لتناول أسرار الليل البلاغية، والأدبية التي جالت في أشعارهم.

الكلمات المفتاحية:

الأدب الذاتي، الشعر الرومانسي، الأدب المقارن، الليل.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

مقدمة:

باسم الله المقتدر، بديع السماوات والأرض، والصلاة والسلام على صاحب أعظم معجزة، وأفضل خلق، وعلى آله وصحبه، ومن والاه، أما بعد:

فما زال الليل منحة إلهية، يتفضل بها على خلقه، ومن ذلك أن كان محركا لأصحاب القلوب المرهفة، فكان ملتجأ العباد والزهاد، وكان مهوى العشاق والمحبين.

وما الليل في الشعر العربي إلا محور الحركة، والحياة، وصورة متألقة من الصور الشاعرة في حياة الشاعر، وواجه الشاعر العربي الليل قديماً وحديثاً، فقد مثل الليل تارة رمزاً للخير وتارة للشر، ونحن أمام هذه التجليات نقف أمام مثل هذه الظاهرة الطبعية، التي استطاعت أن تبرز بوضوح عند كثير من الشعراء، وخاصة هؤلاء الشعراء الذين عدّوا الليل جزءاً من حياتهم.

وجاء هذا البحث مركزا على الفئة الأخيرة، ألا وهي فئة المفتونين، أصحاب العشق والوله من شعراء العرب قديمهم، وحديثهم؛ فتناول من قدمائهم امرأ القيس والنابغة الذبياني، وبشار بن برد، وعوف بن الأحوص، وعمرو بن كلثوم، والفرزدق، وأبا الطيب المتنبي، وأبا العلاء المعري، وأبا فراس الحمداني، وأبا الحسن الحصري القيرواني وعرج على حديثهم، وكان للرومانسيين منهم القبلة، والمتوجه، من أمثال فدوى طوقان، وأبي القاسم الشابي، وجبران خليل جبران، وإيليا أبي ماضي، وعلي محمود طه، ومحمود درويش، وعبدالوهاب البياتي، وغازي القصبي.

ورام من وراء ذلك أن يجلي منزلة الليل لديهم، ويكشف عن شأنه عندهم، متوسلا بذلك المنهج التحليلي النقدي الذي يضطلع بسبر أغوار العاطفة العربية، وقلب العاشق العربي تجاه الليل.

وتفجرت منابع البحث، فانبجثت منه، ثلاثة أعين، وهي المدخل والمبحث الأول، والمبحث الثاني، فجاء المدخل موضحا لعظمة الليل، بوصفة آية من آيات الله العظيمة، وأهم فوائده، وحفاوة القرآن الكريم به؛ بكثرة ما ورد فيه، وعلاوة على ذلك بتنوع مشاربه في الأسلوب القرآني، بينما جاء المبحث الأول، الليل في شعر العرب قديما. متناولا لليل لدى شعراء الرومانسية العربية القدامى، في الوقت الذي جاء المبحث الثاني، الشعر عند الرومانسيين العرب معالجا لليل في الشعر الرومانسي العربي الحديث.

والرجاء موصول بأن يكون ذلك البحث فاتحة خير لأعمال بحثية أخر، تعالج جوانب أخرى لم يتح لهذا البحث معالجتها.

وعلى الله قصد السبيل؛ فهو نعم المولى ونعم النصير.

مدخل:

الليل آية من آيات الله في ملكوت السماوات والأرض، التي تعكس قدرة الخالق، وتبرز جمال صنعه، وتفرد خلقه، وجلال سلطانه؛ لذا فقد كان حقيقا بأن يستأهل منزلة رفيعة في القرآن؛ فقد تكرر اثنتين وتسعين مرة[1]، منها:

وقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾[آل عمران]

وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]،

وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ [الإسراء]

والليل نعمة عظيمة قد يغفل عنها كثير من الناس، والليل فترة زمنية يغشى فيها الظلام كل شيء في الكون؛ فتلجأ المخلوقات للراحة والسكون من عناء نهار طويل.

ولليل فوائد جمة، وعوائد حسنة للإنسان والحيوان والنبات، ومنافعه للبشر شتى نعرف بعضها، ويغيب منا كثيرعناها؛ فلا نستطيع إدراكها ولا حصرها، إن تجول بصرنا في كتاب الله المنظور.

وإذا تأملنا كتاب الله المسطور سنجد أنه ذكر الليل كآية معجزة مفردا له بالتدليل على عظمته، كما ذكره مع آيات أخرى، ومن الآيات التي جاء به منفردا، مقسما به قوله جل من قائل: (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾) [المدثر]، (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾) [التكوير] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾) [الشمس]

أما عن مجيء الليل بصحبة آيات أخرى، التي تأتي مساندة، ومعززة لإبراز قدرة الله، فهي كثيرة(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾) [الليل] وقوله تعالى: (وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾)[الضحى] (وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾) [الفجر] بل ليس أدل من أن تسمى سورة من سور الكتاب العزيز باسمه؛ فكانت سورة الليل.

ورغم تكرار لفظه في التنزيل الحكيم فإنه في كل مرة، يتناوله بطريقة مختلفة تثري المعنى، وتوسع إدراكنا لفهم حقيقته، فانظر إلى هذه الحركة الدائبة في قوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾) [الزمر] (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾) [الحديد]

وقد يستخدم أساليب بلاغية أخرى من شأنها أن تظهر الليل بصورة مختلفة: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّـهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّـهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾) [القصص]، فلا شك في أن الاستفهام الإنكاري يوصلنا لاعتراف ويقين بتفرد الله بهذه القدرة، واختصاصه بها، فلا ينصرف الذهن لغيره.

وفي آية أخرى يظهر لنا فوائد الليل: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾) [النبأ] (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾) [القصص] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾) [يونس]

لقد بلغ الليل شأوا بعيدا، حين ارتبط بالسكون والهدوء والطمأنينة، ينشد فيه الناس راحتهم إثر نهار شاق، فتهدأ نفوسهم، وأجسامهم من كثرة الحركة بالنهار، والسعي وراء الرزق؛ لذلك جعل الله ﷻ الليل ساترا كاللباس، يعم الكون ويشمل المخلوقات كما يقوم اللباس بستر الأبدان، كما جعله يغشى الوجود أي تعم ظلمته، فتنقطع الحركة، وتستكين الجوارح، وتطمئن النفوس؛ لتحيا من جديد، وتزاول نشاطها إلى أجل مسمى.

وقد اتخذ القرآن من الليل مدعاة للعبادة والإخلاص، والانصراف لله وحده لا شريك له؛ لأن الله وحده هو الذي أنعم علينا به، وجعله لباسا وسكنا، وطالما الأمر كذلك فمن باب أولى انصراف العبادة إليه؛ إذ لا تصلح إلا للمنعم الذي حبانا دون غيره بها.

وقد ذكر القرآن ظاهرة النوم في معرض الامتنان علينا، فالليل آية من آيات الله التي تدل على إثبات ضرورة النوم للإنسان، ومن يخالف هذه الفطرة فقد يتضرر؛ فالنوم متحقق للمرء دون اختياره، بل أكدت الدراسات الحديثة على أن النوم في الظلام يحسن نشاط جهاز المناعة عنده، ويؤدي إلى زيادة مخزون الطاقة، ويجدد الخلايا التالفة في الجسم، ويساعد على تخلص الدم من السموم، وعلى استرخاء البدن، وهدوء الأعصاب، ويريح العينين، ويقوي البصر؛ لهذه الأسباب مجتمعة كان الليل حقيقا منا بدراسة تبرز دوره في الشعر العربي خاصة؛ ولقد اقترن الليل بالإعجاز على مستوى اللفظ وعلى مستوى المعنى من جهة، وعلى مستوى الإعجاز العلمي من جهة أخرى.

المبحث الأول: الليل في شعر العرب قديما.

الليل عند العرب قديما كان له شأنه؛ فلقد وقف الشاعر العربي إزاء الليل، وما يثيره في نفسه وخواطره موقفا فريدا، جاء في خلال قصائده الطوال، له مفهومه الأولي من حيث هو زمن، وله مفاهيم مرتبطة بمعتقدات، وأوهام العقلية الجاهلية من جهة، وبمفاهيم مقترنة بقيم العرب وعاداتهم وموجوداته حياتهم من جهة أخرى، فكان ذا ألوان وأنماط متعددة، أبرزت المواقف الشعورية لدى الشاعر الجاهلي، كليل العاشق وليل المهوم، والساري، والصعلوك.[٢]

فمفهوم الليل عند الجاهليين يدور في أقوالهم، وأشعارهم حول مستويات ثلاثة، هي الزماني، والمكاني والدلالي، فالليل بذلك، يحمل بعدين، موضوعيا، وهو ما يتمحور حول معاني العتمة والظلام، ونفسيا.. يجسد معاني الرهبة، والخوف من الظلام.

ويضاف إلى ذلك المعاني التي تحملها عناصر كالقمر والنجوم، فكان لها تأثير عظيم في حياة العرب ومعاشهم، كما ارتبطت تلك العناصر في فكر الجاهليين بتبدل الفصول وتغير المواسم وهطول المطر.

وعلى الرغم من طبيعة الليل الصامتة، فإنه يحمل في جوهره معنى الحركة والتغير، والتحول والفناء، والموت والحياة، وهو ما جعله مرتبطا في فكر الجاهليين، وأشعارهم بمفهوم الزمن، ومثلت الليالي وجه الزمان الباكي، وأداته التي تفعل فعله.

والخوف من الليل له ما يبرره عند الجاهليين عامة والشاعر العربي خاصة؛ إذ إنه ارتبط في عقليتهم بالشر والخوف من المجهول، ويؤكد ذلك ما ترسب في أذهانهم حول الليل.

ومن المؤكد أن الجاهليين قد تميزوا بفكر ديني ساذج، من خرافات وأوهام ومعتقدات جسدها الخوف في داخلهم، وهو ما يجيز القول: إن الليل يساعد على انتشار أهل الشر، والفساد، والغدر، والغيلة تحت جنح الظلام.

ويمكن أن يعد الليل في فكر الجاهليين، وأشعارهم هو المعيار الحقيقي لكثير من القيم الأخلاقية، التي يحرص عليها العربي ويقدسها؛ لأنها، في نظره تحقق له البقاء المادي والمعنوي، وتبلغه السيادة والشرف والسؤدد.

فكان يجمع الشاعر الجاهلي الليل مع النار في ثنائية متلازمة، فقد كانت النار أداة يتغلب فيها على الليل الذي يمثل المتاعب، والمآسي، والمعاناة، فهو رمز الفرقة والظلمة والغربة والقهر، وكيف سيبدد الشاعر هذه الظلمة؟

فكان عليه أن يوقد النار، التي أطلق عليها (نار القرى)، التي عُدّت حينذاك أعظم مفاخر العرب، وكانت ترفع للسفر، وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي عوف بن الأحوص:[٣]

ومستنبح يخشى القواءَ ودونه من الليل باباً ظلمة وستورها
رفعتُ له ناري فلما اهتدى بها زجرت كلابي أن يهرّ عقورها

والليل هنا بظلامه وعتمته هو باب، والباب يعني الدخول منه إلى أجواء الأمان والطمأنينة والخروج إلى حيث النور والفرج، ولكن لماذا تراكم كل هذا الظلام أمام الشاعر؟ والصورة التي أمامنا أن هذه الصور لا بد أن تفضي إلى أن نار القرى التي يشعلها الإنسان ما هي إلا منفذ وباب من أبواب الفرج؛ لطرد ظلمة الليل، ولذلك كلما بعث الليل هماً وخوفاً ورعباً، سدت عليه النار بضيائها، وبالأمل المنبعث منها، والمعقود عليها السبيل للوصول إلى قلب الإنسان والعبث به، وبذلك تكون النار الملازمة لهذا الليل الطويل رمزاً لمشاعر الإخوة الإنسانية.

ولم يتوقف الشاعر عند نار القرى، وإنما وجدنا الحرب، إذا كان يشعلها العرب ليلاً كنار القرى للإنقاذ ودفع الخطر والموت، غير أن هذه النار كان فعلها جماعياً، في حين كان فعل نار القرى فردياً، فكان العرب إذا توقعوا خطراً، وأرادوا الاجتماع، أو الحرب، أوقدوا ناراً على جبلهم ليلاً؛ كي يبلغ الخبر، وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم:[٤]

ونحن غداة أوقد في خزاز رفدنا فوق رفد الرافدينا

وها هو امرؤ القيس، (ذو القروح)، الملك الضليل يذكر الليل في معلقته بعد أن وصف لصاحبته شقاءه؛ بحبها مصورا كيف يقتحم إليها الليل المخوف، ويسترسل في وصف الليل:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا ونآء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل؟

فإن امرأ القيس يتصور الليل كموج البحر، وقد أسدل الستور وعم الكون، لكن ليل شاعرنا مليء بالهموم والمواجع؛ لذا نراه يخاطبه مخاطبة العاقل، وقد استقى من البيئة البدوية أدوات تشبيهه، فالصلب والكلكل والأعجاز ما هي إلا سمات الناقة، التي طالما صحبته في حله وترحاله.

وقد دلتنا لفظة (تمطى) على كآبة وحزن الشاعر، وهي تعني (امتداد الليل وطوله) ونحن لا نشعر بالزمن إلا من خلال عواطفنا وخلجات نفوسنا، فالليل هو زمن لا يتغير، ويطول ويقصر حسب أحاسيسنا فيه، فكم من الأوقات مضت سريعا مع من نحب! وكم من الأوقات تسمر فيها الزمن فلا حراك ونحن بانتظار أمر ما! ننتظر نتيجة الامتحان، أو نتيجة التحاليل، أو السفر، أو نكون بصحبة أناس بعدوا عن هشاشة النفس وأريحية التعامل؛ فيتحول الوقت معهم إلى بطء شديد.

وقد بلغت الهموم بامرئ القيس مبلغا لا يستطيع شروق الصبح تغييرها؛ لذا انظر إلى تصويره الثاني لطول الليل:

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

"ويحس كأنه طال وأسرف في الطول؛ حتى ليظن كأن نجومه شدت بأسباب وأمراس (الحبال) من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تزول، كأنما سمرت في مكانها، فهي لا تجري ولا تسير، وقد ردد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا"[٥].

واسمع النابغة الذبياني حين قرن بين ممدوحه والليل، وكيف صور سطوة الليل عليه، فهو يرى في الليل قدراً مبتلى به لا يستطيع الهرب منه حين يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويلتفت بشار إلى الليل التفاتة مميزة، فلا يدعي بأن ليله طويل، ولا يبالغ في رسم صورة الليل، لكنه يقدم لنا تعليلا، يوازي عقلية الشاعر الجديدة في العصر العباسي، الذي تأثر بثقافات المجتمع الحضاري الجديد، وهي ثقافات متنوعة، بسطت يد الامتزاج بها فرصة للتأثر والتأثير:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم[٦]

وبشار بهذا البيت نقلنا لواقعية التعبير نقلة نوعية، كان لرقي العقل العربي فيها الحظ الأوفر.

وفي علاقة الليل بالنار يقول الفرزدق:[٧]

لولا فوارس تغلب ابنة وائل سد العدوّ عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفتا على النيران

وهنا نرى العلاقة بين الليل والنار، ونرى أن نار الليل قد أدت وظيفة النجدة والاستنقاذ لمن طلبها حرباً.

أما أبوالطيب المتنبي فيرى الليل رمزاً للرعب والبيداء، وقد قرن الليل بالخيل؛ لأن الخيل رمز للقوة والعزيمة:[٨]

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

في حين يرى أبوفراس الحمداني أن الليل هو فرصة للاختلاء بالنفس والتفكير بهموم الحياة وانهمار الدموع للتفريج عن الألم والكد والكرب، ويقول:

إذا الليل أضواني بسطت يدى الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

وكل هذه الأبيات توحي أن الليل هو مصدر الهم والتوتر والخوف، غير أن أبا العلاء المعري كان يرسم صورة مختلفة لليل صورة جميلة حين يقول:[٩]

عللاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفان
ربّ ليل كأنه الصبح في الحسن وإن كان أسود الطيلسان
قد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيران
كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بذم هذا الزمان

ومنهم من تخيل ليل العاشق ممتداً بالقلق والهمّ، وهي من روائع الأدب الأندلسي حين يقول:[١٠]

ياليل! الصبّ متى غده؟ أقيام الساعة موعده؟

المبحث الثاني: الليل في شعر الرومانسيين العرب.

كان الليل ــ ولايزال ــ بما يحتويه من مظاهر كونية مصدراً غنياً للشعراء يستمدون منه المعاني ويستوحون الصور، وكثير منهم كانوا يتخذونه ملاذاً يفرون إليه من متاعبهم، كما اتخذوا منه أيضاً معبداً يتغنون فيه بقيم الجمال وآيات الجلال في شتى المظاهر؛ غير أن بعضهم نظر إلى الجوانب المظلمة منه فاتخذ من لفظه ستاراً يعبر بوساطته ــ رمزاً ــ عن كل ما يعجز عن التعبير عنه صراحة إزاء ما يعانيه من مشكلات الحياة في جميع وجوهها.

وفي هذا البحث وقفة على أبعاد هذا الرمز بشقيه الموضوعي والفني؛ وعلى ما يشير إليه لفظ الليل من دلالات موضوعية متنوعة ومتعددة تشمل المظاهر السياسية والوطنية والقومية بالإضافة إلى المظاهر الاجتماعية والذاتية، ومن خلال هذا هناك وقفة أيضا على أثر هذه الجوانب، وانعكاسها على رؤى الشعراء، واتخاذهم المواقف الإيجابية والسلبية نحوها بوساطة التعبير الرمزي بلفظ الليل.

وسيتجلى كل ذلك من عرض تلك الدلالات وبسطها من خلال مجموعة من النماذج الشعرية لعدد من شعراء العالم العربي الرومانسي، من الأجيال المتعاقبة، التي تمثل اتجاها من أهم الاتجاهات الفنية في الشعر الحديث.

وهنا وقفة يتضح من خلال ذلك أيضاً طريقة كل شاعر فيما عبر عنه ــ رمزا ــ من حيث تأثره بالطريقة الرمزية العربية، أو بالطريقة الرمزية غير العربية، أو تأثره بالطريقتين معا.

ويعشق الرومانسيون الليل، ولا يرون فيه أجواء خرساء؛ فلقد تجلى ذكر الليل أكثر ما تجلى، في شعر الرومانسية، وأصحابها، "والليل عند الرومانسيين يوحي بالانطلاق والتحرر؛ لأن النهار تتجلى فيه الموجودات محددة المعالم في وجود مقيد، والليل يمحو هذه الحدود، فيرتفع ستار الأسرار عن النفس بالإشراق الروحي والأحلام).[١١]

ولا يختلف ليل فدوى طوقان عن رؤية العرب لليل وامتداده، لكنها تربط بين الليل والقلب في قصيدة "ليل وقلب "[١٢]:

هو الليل يا قلب فانشر شراعك واعبر خضم الظلام العميق
وجدف بأوهامك الراعشات في زورق ما به من رفيق

فالقلب يشبه الليل:

وأنك كالليل شيء كبير بعيد القرار سحيق سحيق
وفيك كألغازه المبهمات أفانين من كل لغز دقيق
هواجس مختلفات رؤاها تهوم طورا وطورا تفيق

وتكشف عن اتساع الليل واحتوائه للكون:

ولليل يا قلب أي امتداد يحيط بهذا الوجود العظيم
سرى واحتوى الكون في عمقه فلف البحار ولف الأديم

وتلح على تشبيه القلب بالليل، لكن هذه المرة تستخدم المقارنة:

وكالليل أنت حويت وجودا من العاطفات كبيرا جسيم
ففيك السماء وفيك الخضم وفيك الجديد وفيك القديم

وتنـــــتظم الكـــــون فـــــي خفقـــــة وأنـــــت بجنبـــــي هنـــــا لا تـــــريم

ما أدق تعبيرها! وما أجمله!: "تنتظم الكون في خفقة، وأنت بجنبي لا تريم " إنها لم تزل في وعي بالفن وأدواته التعبيرية، والليل جزء لا يتجزأ من الطبيعة (والنشوة بين أحضان الطبيعة هي طابع الرومانتكيين جميعا، وذلك أن مبادئهم حب الخلوة واعتزال الناس، لأن المجتمعات مباءة ومثار المشكلات، وعبء على ذوي النفوس الرقيقة المشاعر."(١٣)

فهذه فدوى، تطالبنا بالإصغاء للطيور:

وأصـــغ معـــي فـــي ســـكون الريـــاض وقـــد لفهـــا غســـق الغيهـــب
طيـــور توشـــوش جـــنح الـــدجى وتكشـــف عـــن همهـــا المختبـــي
فهـــذا الخريـــف تـــدب خطـــاه ليعصـــف بـــالزهر المعجـــب
ويخنـــق ألحـــان أشـــواقها ويلـــوي بترجيعهـــا المطـــرب

الطيور تبوح بهمها لجنح الدجى، وخطى الخريف تدب عاصفة بالزهر الذي كان موضع إعجابنا، بل ويخنق الخريف ألحان أشواق الزهر المترنمة، فالخريف فصل سلب الطبيعة نضارتها، فتسقط الأوراق، وتتساقط معه أنفسنا.

فلقد جعلت فدوى قصيدتها عبارة عن لوحات فنية، تحمل كل لوحة فكرة جديدة، تتعانق مع بقية أفكار القصيدة، وقافية تختلف عن الأخرى؛ مما يتيح لها النظم بحرية وتدفق.

ونحن ننتظر من الشاعر ما لا ننتظر من غيره، فالشاعر يعيد بناء عواطفنا ومفاهيمنا، ويرتب ما تبعثر من أفكارنا بأسلوب فني راقي، فاسمع لهذا الشاعر الثائر (الشابي)، الذي يحدد "فكرة الفنان"(١٤):

عـــش بالشـــعور وللشـــعور فإنمـــا دنيـــاك كـــون عواطـــف وشـــعور
شيدت علـــى العطـــف العميـــق وإنهـــا لتجـــف لـــو شـــيدت علـــى التفكيـــر
وتظـــل جامـــدة الجمـــال كئيبـــة كالهيكـــل المتهـــدم المهجـــور
وتظـــل قاســـية الملامـــح جهمـــة كـــالموت مقفـــرة بغيـــر ســـرور

حقا.. ما أقسى دنيانا من غير شعور يجملها! وعاطفة توشحها؛ فتخفف من قسوة أحداثها، وجسامة وقعها على النفس.

وللشاعر قلب مختلف، يستوعب صور الحياة وأشكالها مهما بدت متنافرة، متناثرة "قلب شاعر":

كـــل مـــا هـــب ومـــا دب ومـــا نـــام أو حـــام علـــى هـــذا الوجـــود
مـــن طيـــور وزهـــور وشـــذى وينـــابيع وأغصـــان تميـــد
وبحـــار وكهـــوف وذرى وبـــراكين ووديـــان وبيـــد
وضـــياء وظـــلال ودجـــى وفصـــول وغيـــوم ورعـــود
وثلـــوج وضـــباب عـــابر وأعاصـــير وأمطـــار تجـــود

والشابي شاعر ناضج التجربة رغم صغر سنه، واجه ظروفا قاسية؛ بموت والده، وعاش صراعا بين أحلام الشاعر وبين مسئولياته إزاء أسرته، يقول معبرا عن ذلك في "قيود الأحلام":

وأود أنـــا أحيـــا بفكـــرة شـــاعر فأرى الوجـود يضـيق عـن أحلامـي
إلا إذا قطعـــت أســـبابي مـــع الـــ ـــدنيا وعشـــت لوحـــدتي وظلامـــي
لكننـــي لا أســـتطيع فـــإن لـــي أمـــا يصـــد حنانهـــا أوهـــامي
وصـــغار إخـــوان يـــرون ســـلامهم فـــي الكائنـــات معلقـــا بســـلامي
فقـــدوا الأب الحـــاني فكنـــت لضعـــ ـــفهم كهفـــا يصـــد غوائـــل الأيـــام

فإن هذا الاعتراف بالمسئولية لا يصدر إلا من نفس مفطورة على الإحساس بالآخرين، مفطورة على التضحية والإيثار، وهذه هي (الطبيعة الأخلاقية لتشيكوف وهي نفسها الطبيعة الأخلاقية لأبي القاسم الشابي، إنهما فنانان من معدن إنساني واحد، يشعران بأحزان الآخرين كأنهما أحزانهما، ويعطيان للحياة من جهدهما وحبهما ما قد يخفف ولو دمعة واحدة، ولو لحظة واحدة من لحظات الألم التي يمر بها البشر).[١٥]

فأبوالقاسم الشابي شاعر رومانسي، لم يسلبه المرض إحساسه بالحياة وجمالها، ولم يمنعه مرض قلبه من الثورة على الفن، والثورة على الاحتلال الفرنسي في تونس، وهو بحق شاعر ثوري مجدد على المستويين "الذاتي والاجتماعي"، فتأمل هذه الدعوة لليقظة في قصيدته "سر النهوض":

لا يـــنهض الشـــعب إلا حـــين يدفعـــه عـــزم الحيـــاة إذا مـــا اســـتيقظت فيـــه
والحـــب يختـــرق الغبـــراء منـــدفعا إلـــى الســـماء إذا هبـــت تناديـــه
والقيـــد يألفـــه الأمـــوات مـــا لبثـــوا أمـــا الحيـــاة فيبليهـــا وتبليـــه

"وبذلك يكون الشابي من أبرز الشعراء العرب في القرن العشرين، الذين يشغلهم البحث عن فكرة شاملة، هذا البحث الذي هو دائما من شأن الشعراء الكبار، الذين لا يقنعون بأن يكون شعرهم مجرد انطباعات متفرقة عن مواقف الحياة المختلفة، بل هم يبحثون عن خيط، يربط تلك المواقف بفلسفة واحدة ووجهة نظر جوهرية في الحياة، ولقد استطاع الشابي أن يصل إلى هذه الفكرة الشاملة، التي أقنعته، وآمن بها وسماها "يقظة الإحساس"، وأصبحت يقظة الإحساس في نظره هي سر التقدم الحضاري والتقدم الفني".[١٦]

فاسمع صرخة الشابي المدوية، التي لم تزل ترن في قلوب الأجيال قبل أسماعهم، بل أصبحت نبراسا يستقون منه القوة والصمود "إرادة الحياة":

إذا الشـــعب يومـــا أراد الحيـــاة فـــلا بـــد أن يســـتجيب القـــدر
ولا بـــد لليـــل أن ينجلـــي ولا بـــد للقيـــد أن ينكســـر
ومـــن لـــم يعانقـــه شـــوق الحيـــاة تبخـــر فـــي جوهـــا وانـــدثر
كـــذلك قالـــت لـــي الكائنـــات وحدثني روحها المستتر

والشابي شاعر تجاوز عمره الزمني، وتخطى بفنه حدود بلده الجغرافية، وحلق في سماء الإنسانية الرحبة؛ وهو ما يجعلنا نرى بحق أن شعره عالم متميز، يحمل اتجاهات واضحة، سخية، تحمل من شجن الفن كما تحمل من عبقرية التفكير، وقد يلتقي مع شعراء

آخرين في فكره، ولكنه أبدا يتفرد برؤية وتعبير وتصور مختلف، فارهف سمعك إلى ما يقول في حنو بالغ:

أنـــا كئيـــب، أنـــا غريـــب، كـــآبتي خالفـــت نظائرهـــا
غريبـــــــة فـــــــي عـــــــوالم الحـــــــزن
كـــآبتي فكـــرة مغـــردة، مجهولـــة مـــن مســـامع الـــزمن
لكننـــي قـــد ســـمعت رنتهـــا بمهجتـــي، فـــي شـــبابي الثمـــل
ســـمعتها فانصـــرفت مكتئبـــا أشـــدو بحزنـــي كطـــائر الجبـــل
ســـمعتها أنـــة يرجعهـــا صـــوت الليـــالي ومهجـــة الأزل
ســـمعتها صـــرخة مضعضـــعة كجـــدول فـــي مضـــايق الســـبل
كآبـــة النـــاس شـــعلة ومتـــى مـــرت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد

فالحب والطبيعة والليل والمرأة والأحلام والذكرى والأسى معانٍ وألوان ومشاعر وعوالم متباينة في شعر الشابي، لها في كل قصيدة شعور مختلف ولغة رومانسية خاصة؛ لذلك لا نعجب (فالأدب الرومانتيكي أدب الثورة فالثورة هي الموجهة به والمسيطرة عليه، والرومانتيكيون هم أبناء الثورة شبوا في حجرها ورويت أفكارهم بدمائها).[١٧]

وقد اتضحت خصائص الرومانسية بجلاء في موضوعات فنية محددة عند الشابي مثل: الطبيعة، والحب، والحديث عن القلب، والموت؛ فالحب في شعر الشابي عاطفة تتطلع للكمال، وتتخذ من الحب انطلاقة روحية نحو المثالية (الحب)، كما تجلى دور الليل فيه:

الحـــب شـــعلة نـــور ســـاحر هبطـــت مـــن الســـماء؛ فكانـــت ســـاطع الفلـــق
ومزقـــت عـــن جفـــون الـــدهر أغشـــية وعـــن وجـــوه الليـــالي برقـــع الغســـق

ويترقى بالحب إلى درجة الألوهية يطوف بالدنيا، فيجعلها نجما جميلا من نجوم الليل:

الحـــــب روح إلهـــــي مجنحـــــة أيامـــــه بيضـــــاء الفجـــــر والشـــــفق
يطـــوف فـــي هـــذه الـــدنيا فيجعلهـــا نجمـــا جمـــيلا ضـــحوكا جـــد مؤتلـــق
لولاه مـــا ســـمعت فـــي الكـــون أغنيـــة ولا تـــآلف فـــي الـــدنيا بنـــو أفـــق

وقد ارتبط الحب بالمرأة، والمرأة في شعر الشابي تتكون من الأحلام والأطياف والزهور، وهي ليست من جسد، بل من روح شفافة، وليست مزيجا من الخير والشر، ولكنها خير مطلق وصفاء مطلق، وحبها ليس حبا حسيا، بل إنه لا يختلط أبدا بأي معنى من معاني الحس، إنه حب روحي شفاف، يسمو فوق نداء الغريزة، ويختلف عن ذلك الحب العادي الذي يعرفه الناس.[١٨]

ففي قصيدة "صلوات في هيكل الحب" يصور المرأة، ويربط بينها وبين الليلة القمراء الجميلة:

عذبـــة أنـــت كالطفولـــة كـــالأحلام كـــــاللحن كالصـــــباح الجديـــــد
كالســـماء الضـــحوك كالليلـــة القمـــراء كـــــالورد كابتســـــام الوليـــــد

امرأة الشابي مختلفة الملامح، غريبة السمات، مشتقة أوصافها من نضارة الطفولة، وعذوبة الأحلام، إنها شبيهة اللحن والصباح بما يحمل من جدة وتباشير، وهي متسعة كالسماء، شذية كالورد وابتسام الوليد.

وإذا انتقلنا إلى الليل في شعر الشابي، فالرومانسيون يحبون الليل، ولا يرون في الليل رحابا من الأجواء الخرساء المؤنسة التي تساعد على التفكير كما كان يرى (باسكال الكلاسيكي)، بل لأن الليل مليء بالأسرار التي لا تدرك، ولأنه مثار الأحلام، ويولعون بوصفه خاصة قبيل غروب القمر أو بعيده، إذ تثور خواطرهم في هدأة الكون، حين تبدو الظلمات مشوبة بأضواء شاحبة في طريقها إلى الفناء، وهذا الفناء الذي يذكي الشعور بالموت يفتح أمام الرومانتيكيين باب الأبدية؛ لأنهم يعتقدون أن الحقائق الكبرى تتجلى في ظلمات الأحلام، وما ظلمات الموت إلا فجر الخلود.(١٩)

لقد تحول الليل إلى إنسان يخاطبه في "شكوى ضائعة":

يا ليل ما تصنع النفس التي سكنت هذا الوجود ومن أعدائها القدر
ترضى وتسكت هذا غير محتمل إذا فهل ترفض الدنيا وتنتحر؟

إنه يشكو من الموت الذي ينتظره لليل:

وذا جنون لعمري كله جزع باك ورأي مريض كله خور
فإنما الموت ضرب من حبائله لا يفلت الخلق ما عاشوا فما النظر؟

ويخرج عن جادة العقل والصواب، فيخطئ في حق الله حين يقول:

هذا هو اللغز عماه وعقده على الخليقة وحش فاتك حذر
قد كبل القدر الضاري فرائسه فما استطاعوا له دفعا ولا حزروا
وخاط أعينهم كي لا تشاهده عين فتعلم ما يأتي وما يذر
وحاطهم بفنون من حبائله فما لهم أبدا من بطشه وزر
لا الموت ينقذهم من هول صولته ولا الحياة تساوي الناس والحجر

ويتملكني العجب من هذه النفس الخلاقة فنا، يحلق بها في سماء الكون ومخلوقاته، أعجب حقا من هذه النفس الشفافة كيف لم تصل بعد لهاديها؟ وباسط رزقها في السموات والأرض؟ كيف لم تترق في درجات الإيمان رغم بؤسها وضعفها؟ هل الله يستأهل أن يدعى " وحش فاتك " يخيط أعين الناس حتى لا يروه؟ ما ينفع الفن إذا لم يحسن قربنا من الله، وتذوق أطايب العيش في ظلال الإيمان؟ لكنها النفس يعتورها الضعف، وتتأرجح بين اضطراب وحيرة وتردد، فتستلم لليأس تارة، والقنوط تارة أخرى خاصة في حالة شبيهة بحالة الشابي التي لم تعرف إلا الألم.

ولذلك نراه يعود فيستيقن جلال الله: إن من أصغى إلى صوت المنون وصدى الأجداث ليس تستهويه ألحان الطيور بين أزهار الربيع الساحره، وابتسامات الحياة الساخره عن جلال الله. "إن الشابي قد استبقى من التراث الديني قضية القضاء والقدر وحدها، وهذا أمر بيّن السبب، مُنِي الشابي بمرض، لا يرجى منه شفاء، فلم يستطع الثورة على حاله الطبيعية المرضية، كما ثار على حاله النفسية والاجتماعية.

إنه كان يظن أن كل شيء في العالم يمكن أن يتبدل إذا شاءت الإرادة الفردية أو الشعبية أن تبدله، ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبعية، ورسف في قيود المرض

أدرك أن "هذه الإرادة" عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الأول؛ فعاد يطمئن نفسه بصحة القدر، إن في الأبيات التالية إذعانا للقضاء والقدر ورضا بما جرى به القلم الأزلي:

مـــا لـــي تعـــذبني الحيـــا ة كـــأنني خلـــق غريـــب
وإذا ســـألت: لـــم الوجـــود وكلـــه هـــم مـــذيب
قالـــت: نـــواميس الســـماء قضـــت، ومـــا لـــك مـــن هـــروب؟(٢٠)

ولم يزل الليل إنسانا يحاور، ويتنهد، ويصمت:

تنهـد الليـل حتـى قلـت: قـد نثـرت تلـك النجـوم ومـات الجـن والبشـر
وعـاد للصـمت يصـغي فـي كآبتـه وعـاد للصـمت يصـغي فـي كآبتـه

والليل عند الشابي "أبو البؤس":

أيهـا الليـل يـا أبـا البـؤس والأهـوا ل يـا هيكـل الحيـاة الرهيـب
فيـك تجثـو عـرائس الأمـل العـذ ب تصـلي بصـوتها المحبـوب
فيثيـر النشـيد ذكـرى حيـاة حجبتهـا غيـوم دهـر كئيـب
وتـرف الشـجون مـن حـول قلبـي بسـكون وهيبـة وقطـوب

"فالليل عنده رمز البؤس والهول وعذاب الجحيم، وأي عذاب؟! إنه عذاب المريض الذي تغلق عليه دائرة حياته ولا تنفتح إلا للألم والوجع".(٢١)

ويكشف عن أهمية الليل:

أيهـا الليـل أنـت نغـم شـجي فـي شـفاه الـدهور بـين النحيـب
تسـمع الـنفس فـي هـدوء الأمـاني رنـة الحـق والجمـال الخلـوب
فتصـوغ القلـوب منهـا أغاريـدا تهـز الحيـاة هـز الخطـوب

ويرسم صورة جديدة للكون حين يرتمي بصدر الليل:

يهجع الكون في طمأنينة العصفور طفـلا بصـدرك الغريـب
وبأحضانك الرحيمة يستيقظ في نضرة الضـحوك الطـروب

بل أصبح الليل مرتادا لأحلام كل قلب:

إن فـي قلبـك الكئيـب مرتـادا لأحـلام كـل قلـب كئيـب
وبقيثـارة السـكينة فـي كفيـك تنهـل رنـة المكـروب
فيك تنمو زنابق الحلم العـذب وتـذوي لـدى لهيـب الخطـوب
خلف أعماقك الكئيبـة تنسـاب ظـلال الـدهور ذات القطـوب
وبفوديـك فـي ضـفائرك السـود تـدب الأيـام أي دبيـب

ولاحظ معي تكرار لفظ " كئيب الكئيبة " ثلاث مرات و"المكروب" و"الخطوب" و"ذات القطوب"، فكلها تشي بحالة الحزن الذي ساد قلب الشابي وحياته، فأصبح معجمه اللغوي يتكئ عليها، ويتميز بها.

فإنها لغة شعرية تفرد الشابي بحياكتها، ومحاولة نثرها أو شرحها يسلبها جمالا وإيقاعا وتناغما، فلا يحسن تذوقها إلا إحساسا وإيقاعا، كما هي.

ولا انتهاء ولا حصر لتجارب الشابي الإنسانية الراقية، التي تتفرد بهذا الفيض، والثراء على مستوى الألفاظ والعبارات، وعلى مستوى المضامين والأفكار والشابي من الرومانسيين القلائل، الذين عاملوا اللغة العربية بخصوصية نادرة، شفعت له ثقافته واطلاعه بالأدب العربي والغربي؛ لذلك نجد ثراء واسعا في استخدام الألفاظ ودلالتها، بل هو يخضع اللغة لحالته النفسية المضطربة، المطردة، فتتسارع إيقاعاتها تسارعا عجيبا يتلاءم معها، وإن لم يتوافق مع قواعد اللغة وعروضها.

وقد سماها د. عمر فروخ بـــ"النفس الشعري": "وأرى للشابي مقدرة جبارة غريبة على تنسيق الكلام وتأليفه حتى يصير موسيقى لانهائية تنبو عن القواعد كما هي نشأت عن غير مفروض البلاغة".(٢٢) وعندما يقارن د. فروخ بين الشابي وأقرانه نجده يقضي بتفوق الشابي: "إن الشابي أبرع من جميع أقرانه الذين يذكرون معه في الفنون التي جرى فيها، وهو بلا ريب أشعر من جبران خليل جبران، وجبران ليس شاعرا، فمن الظلم للشابي أن ننسبه إليه أو أن نفاضل في الشعر بينهما".(٢٣)

وقد يلتقي مع شعراء المهجر في رؤيته الشعرية وموضوعاته، ولعل نصوصنا المنتقاة سابقا تفصح عن مدى هذا الأثر، ويتسع المكان لدراسة خاصة لهذا.

ولن أستطيع المضي دون ذكر هذه الفلسفة الراقية عن "الناس" للشابي:

ما قدس المثل الأعلى وجمله ... في أعين الناس إلا أنه حلم
ولو مشى فيهم حيا لحطمه ... قوم وقالوا بخبث "إنه صنم"
لا يعبد الناس إلا كل منعدم ... ممنع ولمن حاباهم العدم
حتى العباقرة الأفذاذ حبهم ... يلقي الشقاء وتلقى مجدها الرمم
الناس لا ينصفون الحي بينهم ... حتى إذا ما توارى عنهم ندموا

والشابي هنا يكشف بواقعية وصدق ظلم الناس لأصحاب المواهب والقدرات المميزة الذين يقضون حياتهم دون أدنى تقدير لها، وإذا ماتوا أشادوا بأعمالهم وأبرزوهم، ويؤكد البحث على رمزية الطبيعة ومكوناتها ومنها الليل لمعانٍ، يرمي إليها الرومانسيون، فكما ارتبط الليل بالحب، وشجونه، ارتبط ظلامه بالظلم والاستبداد.

"والليل معبر إلى اللانهاية وهذه ناحية صوفية في أدب الرومانتيكيين، وليس الليل الرومانتيكي صورة للموت خاليا من كل أمارات الحياة، ولكنه مليء بالأسرار والحركات المستمرة، ففيه تطوف الأرواح حول قبورها، وفيه تتحرك أشباح الخيال."(٢٤)

وهنا وقفة مع تفاؤله الدائم بالحياة، ويرى من ظلام الكون بدءًا للنور؛ فهو يقول:

مات النهار ابن الصباح فلا تقولي كيف مات
إن التأمل في الحياة يزيد أوجاع الحياة
فدعي الكآبة والأسى واسترجعي مرح الفتاة
قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهللا
فيه البشاشة والبهاء
ليكن كذلك في المساء

إنها دعوة خاصة للتفاؤل والاستبشار بالحياة:

لتكن حياتك كلها أملا جميلا طيبا
ولتملأ الأحلام نفسك في الكهولة والصبا
مثل الكواكب في السماء وكالأزاهر في الربى

لـــــيكن بـــــأمر الحـــــب قلبـــــك عالمـــــا فـــــي ذاتـــــه
أزهـــــــــاره لا تـــــــــذبل، ونجومـــــــــه لا تأفـــــــــل.

وللّيل عند إيليا رغائبه وأحلامه وسماؤه وكواكبه، فلم تجزع؟

لا فـــــرق عنـــــد الليـــــل بـــــين النهـــــر والمســـــتنقع
يخفـــــي ابتســـــامات الطـــــروب كـــــأدمع المتوجـــــع
إن الجمـــــال يغيـــــب مثـــــل القـــــبح تحـــــت البرقـــــع
لكـــــن لمـــــاذا تجـــــزعين علـــــى النهـــــار وللـــــدجى
أحلامـــــــه ورغائبـــــــه وســـــــماؤه وكواكبـــــــه؟

ما أبدعه من وصف!، وأدقه من إحساس!، ويستقصي رؤاه في الليل مبينا أهم ما تميـز به وهو " الستر":

إن كـــــان قـــــد ســـــتر الـــــبلاد ســـــهولها ووعورهـــــا
لـــــم يســـــلب الزهـــــر الأريـــــج ولا الميـــــاه خريرهـــــا
كـــــلا ولا منـــــع النســـــائم فـــــي الفضـــــاء مســـــيرها
مـــــا زال فـــــي الـــــورق الحفيـــــف وفـــــي الصـــــبا أنفاســـــها
والعنـــــــدليب صـــــــداحه، لا ظفـــــــره وجناحـــــــه

لهذه الأسباب جميعها، وبعد أن شرح وعلل، ونظم فأجمل، يطلب منها الإنصات:

فأصـــــغي إلـــــى صـــــوت الجـــــداول جاريـــــات فـــــي الســـــفوح
واستنشـــــقي الأزهـــــار فـــــي الجنـــــات مـــــا دامـــــت تفـــــوح

لقد أصبح الحب لا يرى إلا وهو في حالة تمازج مع الطبيعة، فلا نستشعر جمال الكون إلا ممثلا بهما وبالحبيبة:

وتمتعـــــي بالشـــــهب فـــــي الأفـــــلاك مـــــا دامـــــت تلـــــوح
مـــــن قبـــــل أن يـــــأتي زمـــــان كالضـــــباب أو الـــــدخان
لا تبصـــــرين بـــــه الغـــــدير، ولا يلـــــذ لـــــك الحريـــــر

"لا يختلي الرومانتيكيون في الطبيعة ليفكروا ويستخلصوا الحجج، أو يحلوا مشـكلات، كلا، ولكن ليحلموا ويستسلموا لمشاعرهم"[٢٥] ويعذب الفن، وتخترق الكلمة الجميلة شفافية القلوب، فيسمو بها طين الجسد:

إذا أطـــــل البـــــدر مـــــن خـــــدره فإنمـــــا يطلـــــع كـــــي تنظريـــــه
وإن شـــــدا البلبـــــل فـــــي وكـــــره فإنمـــــا يشـــــدو لكـــــي تســـــمعيه
وإن يفـــــح عطـــــر زهـــــور الربـــــى فإنمـــــا يعبـــــق كـــــي تنشـــــقيه

واستمع وتذوق هذا التمني الجميل:

يـــــا ليتنـــــي البـــــدر الـــــذي تنظـــــرين يـــــا ليتنـــــي البلبـــــل الـــــذي تســـــمعين
يـــــا ليتنـــــي العطـــــر الـــــذي تنشـــــقين أواه.. لـــــو تصـــــدقين يـــــا ليتنـــــي

لا أدري من أي معجم يقتبس إيليا ظلال كلماته، ومن أي تأليف يجمع عباراته، بل وكيف ينفث في ثنايا الحرف وهجا من نور، فنعيش اللغة معه من زاويتين من حيث هي لغة بحروف مألوفة، ومن حيث هي لغة مشحونة بهائل من العواطف المذابة، والرؤى الطامحة، والإبداع الخلاق.

وينتمي الشاعر المصري علي محمود طه إلى المدرسة الرومانسية، فهو من أعلام مدرسة أبولو، التي أثرت الشعر العربي باتجاهها الفني الجديد.

وقد وصفه أحمد حسن الزيات: كان شابا منضور الطلعة، مسجور العاطفة مسحور المخيلة، لا يبصر غير الجمال، ولا ينشد غير الحب، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوي ينشدها الدهر، ويرقص عليها الفلك ونظم علي في جميع أغراض الشعر كالغزل والرثاء والمديح والفلسفة والحكمة والتأمل والطبيعة بجمالها الأخاذ.[٢٦]

ولعله في ديوان "الملاح التائه" قد تجلت النزعة الرومانسية واضحة، فاسمعه وهو يخاطب الملاح:

أيها الملاح قم، واطو الشراعا لم نطو لجة الليل سراعا
جدف الآن بنا في هيئة وجهة الشاطئ سيرا واتباعا
فغدا يا صاحبي تأخذنا موجة الأيام قذفا واندفاعا

إنها رحلة الحياة الصعبة، التي تمتد ولا تعرف التوقف.

وتغلب على شعره الحسية في الوصف، شأنه في ذلك شأن الشعراء الكبار، كالبحتري الذي وصف فأتقن، وأبدع، بل عد الوصف عنده سجلا تاريخيا لوقائع وأحداث وحضارات لولا الشعر ما عرفنا عنها شيئا مثل وصف الأسطول البحري، وهذا لا يقلل من قيمة الشعر، ولا من قيمة الشاعر، فكم أحزنني ما كتبه المؤرخ الجليل! الذي تتلمذنا على يديه، واتخذناه نبراسا، يهدينا في دراساتنا الأدبية، والنقدية عند ما وضع عنوانا لمقاله عن شعر علي محمود "ضجيج الألفاظ الخلابة".

وكان مذبذب الرأي فمرة يقول: "إن هذه الخصائص إنما تعود في جملتها إلى خصائص لفظية، فليس علي محمود طه صاحب نزعة فلسفية في شعره، ولا هو صاحب نزعة نفسية، إنما هو صاحب لغة شعرية، تبعث النشوة في نفس سامعه وقارئه بألفاظها البراقة، وما تحمل من رنين يبدع فيه ويفتن"[٢٧]، أحقا أن الشعر لا يكون شعرا إلا بفلسفة؟ ألا يذكر احتجاج البحتري على المنطق حين قال:

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

ومما لا ريب فيه أن أستاذنا د. شوقي قد بعد عن الموضوعية في رأيه، وأجحف الشاعر حقه، ونراه في ذات المقال يكتب: "وكانت للشاعر ملكة جيدة، يعرف بها كيف يجمع هذه الألفاظ، ويراكمها في الشعر؛ فتؤثر في سامعيه وكأنها تغلق الأبواب عليهم، فإذا هم وقعوا في شباكها"[٢٨].

هذا اعتراف مهم بشاعرية علي محمود طه، وكأنه ندم، وعاد؛ ليهزأ بسامعيه، ولو علم أستاذي د. شوقي بمدى الأثر الذي خلفه في نفسي هذا المقال ما فكر في نشره قط! إن الناقد النزيه يحاول الابتعاد قدر الإمكان عن التكرار دون طائل، ويتحرى الصدق والموضوعية في نقده؛ لأن الهدف هو الرقي بذوق المتلقي واحترام تجارب الشعراء، ود.

شوقي ركز نقده على زاوية واحدة، ألا وهي الألفاظ، وكررها أكثر من مرة؛ مما أفقده صدقه، وسلب الشاعر ميزاته الأخرى.

ورغم ذلك فقد نال علي محمود طه شهرة أدبية واسعة النطاق، كان للموسيقار عبدالوهاب اليد الطولى في معرفته، حينما غنى قصيدته "الجندول"، كما تصدت الشاعرة المعاصرة نازك الملائكة لدراسة عميقة لشعر علي محمود طه، وتوصلت إلى أنه ارتفع عن مرتبة الحسية إلى آفاق الروحانية، والفكر، والخيال.

ولعل عامل الزمن اليوم هو الحكم على شعر هذا الشاعر، وأنا لا أسوق دفاعي عن الشاعر بقدر ما استنكر حدة د. شوقي في نقده.

فقد صور حلم الأرض بعد نشوتها:

هذه الأرض انتشت مما بها فغفت تحلم بالخلد خداعا
قد طواها الليل حتى أوشكت من عميق الصمت فيه أن تراعا

ويتعانق الليل بالحب والجمال؛ فيصيح الشاعر بالأحياء:

أيها الأحياء غنوا واطربوا وانهبوا من غفلات الدهر ساعا

ليعيشوا سحر الليلة:

آه ما أروعها من ليلة فاض في أرجائها السحر وشاعا
نفح بها الحب من روحه ورمى عن سرها الخافي القناعا
وجلا من صور الحسن لنا عبقريا لبق الفن صناعا
نفحات رقص البحر لها وهفا النجم خفوقا والتماعا

فالأرض وما تحمل تهتف بالحب:

وسرى من جانب الأرض صدى حرك العشب حنانا واليراعا
بعث الأحلام من هجتها كسرايا الطير نفرن ارتياعا
قمن بالشاطئ من وادي الهوى بنشيد الحب يهتفن اتباعا

ويوجه خطابه هذه المرة للمهاجر:

أدرك التائه في بحر الهوى قبل أن يقتله الموج صراعا
وارع في الدنيا طريدا شاردا عنه ضاقت رقعة الأرض اتساعا
ضل في الليل سراه ومضى لا يرى في أفق منه شعاعا
وامسح الآن على آلامه بيد الرفق التي تمحو الدماعا

فإنها دعوة للحب مستمرة، فالحب روح الحياة، ورابطة الأمل في قلوب الناس، بل في قلب المؤمن بالله. ألم يقل إيليا: وبالحب قد عرفت الله؟!

وفي قصيدة "في القرية " يلتقي شاعرنا بأبي ماضي في فكرته، وتجسيده للطبيعة حين يطلب من فتاة الريف أن تغني، فاسمع قوله:

غني بأودية الربيع وطوفي وصفي الطبيعة يا فتاة الريف
ولى خريف العام بعد ربيعه ولكم ربيع مر بعد خريف!

"وحب الطبيعة هو الذي جعل بعض الرومانتيكيين يشيدون بالريف وأهله"[٢٩] إنه الحنين للطفولة الغضة:

قومي عذاري الريف والتمسي الربى نضرا وغني بالغدير وطوفي
وتفيئي الدوح الظليل ومربأ للفن تحت أزهار وقطوف
غصن يطل الفجر من ورقاته ويقبل الأنداء جد شغوف
أين الغدير عليه يخلع وشيه صنع الأنامل رائع التفويف؟
يا حبذا هو من مراح للصبا والكوخ من مشتى لنا ومصيف
صور نزلن على بنان مصور صورن من نسق أغر شريف
أغرين بي حلم الطفولة والهوى وأثرن بي ذكرى ليالي الريف

ومن الظواهر الفنية في شعر علي هذه البساطة في ألفاظه وعباراته، وهذه الصور المنتزعة من الطبيعة، فلا غلو ولا مبالغة في الوصف، بل نراه يتحرر من التزام القوافي، فينوع فيها ويشكلها تشكيلا يتناسب وحالته النفسية.

والقصيدة المختارة التالية هي من نوع خاص، وتركيبة موسيقية متفردة، وجمالها في قراءتها بصوت عال أولى من نثرها نقدا وتعليقا، فهي أميل للغنائية "أغنية ليالي النيل".

والليل عند الشعراء له وقع وسحر لا يضاهى؛ فهو النديم والسمير، وهو الملهم:

دنا الليل؛ فهيا الآن يا ربة أحلامي
دعانا ملك الحب إلى محرابه السامي

والدجى يتحول لوَحْيٍ من أناشيد وأنغام، تسري فرحته في الماء والشجر والسحب؛ فينادي شاعرنا محبوبته:

تعالي فالدجى وحي أناشيد وأنغام
سرت فرحته في الماء والأشجار
ألا فلنحلم الآن فهذي ليلة الحب
على النيل وضوء القمر الوضاح كالطفل
جرى في الضفة الخضراء خلف الماء والظل
تعالي مثله نلهو بلثم الورد والطل
هناك على ربى الوادي لنا مهد من العشب
يلف الصمت روحينا ويشدو بلبل الحب
يطوف بنا على شط من الأضواء مسحور
شراع خافق الظل على بحر من النور
تناجيه نجوم الليل نجوى الأعين الحور
وأنت على فمي ويدي خيال خافق القلب

فيا لها من ليلة حب تغري بالحلم! الذي يتمازج بصور الطبيعة وأشكالها من ماء، وعشب، وورد، وطل، وبلبل يشدو، وشراع يخفق.

ويرسم القصيدة لوحات فنية كلها تدعو للحلم:

ألا فلنحلم الآن فهذي ليلة الحب
ليالي الصيف أحلام تراءت للمحبينا

تغيـــب الخمـــر والســـاقي ويبقـــى ســـحرها فينـــا
وهـــذا كأســـها الوهـــاج صـــداح بأيـــدينا
فهيـــا نشـــرب الليلـــة مـــن نبـــع الهـــوى العـــذب
ألا فلـــنحلم الآن فهـــذي ليلـــة الحـــب

ولا ريب في أن قصائد علي محمود طه تميزت بانسيابية عجيبة قربتها من أفهام العامة، وجعلتهم يرددونها رغم احتفاظها بصحة اللغة وقواعدها، ولعل وحدتها الموضوعية والعضوية، مع تنوع قافيتها أضافت إليها غير قليل من التجديد، الذي لا يتنافى مع روح القصيد التقليدية، بل يمنحها طعما خاصا بمذاق خاص.

إن لرهف الحس وشبوب العاطفة عند الرومانسيين أثرا عظيما في هيامهم بالطبيعة في جميع مظاهرها، فهم يريدون أن يستلهموها ويستوحوها أسرارها وأن يكون أدبهم صورة صدق للشعور الصادق بما يتجلى لإحساسهم من مناظرها؛ لذلك لا نستشعر قيمة التجارب الإنسانية عند الرومانسيين ما لم نر هذا التعانق الحبيب الجميل للنفوس الطاهرة، والعقول النيرة بين الحب والطبيعة، هذا الحب الذي بكى وأبكى، وأبهج وأنار دروب الحياة.

وفي الوقت الذي تباينت فيه تجليات الشعراء في العصور السالفة مع الليل، لوحظ أن تجلياتهم مع الليل في العصر الحديث كانت أكثر تباينا؛ فإنه ومع دقيق التأمل في ليل شعراء الأدب المعاصر الرومانسيين، فهناك وقفات محيرة، فهل الليل هو الليل نفسه الذي كان يراه هؤلاء، أم أنه يختلف في نظرهم؟

والليل لدى إبراهيم ناجي له مذاقه الخاص، فتارة مكمن الأسرار، وتارة مبعث الأحلام والجمال؛ فنراه يقول في قصيدته لقاء في الليل:(٣٠)

قالـــت: تعـــال، فقلـــت: لبيـــكِ هيهـــات أعصـــيْ أمـــرَ عينيـــكِ
... ...
يـــا لحظـــة مـــا كـــان أســـعدها وهنـــاءة مـــا كـــان أعظمهـــا
*** ***
كشـــفت لعينيْنـــا وقـــد ومضـــت ظلـــين مقنعـــين فـــي الســـورِ
وكـــأن ضـــحكتها وقـــد طربـــت قطـــرات مـــاء فـــوق بلـــورِ
وكواكـــب ليســـت بمجديـــة ظلـــم مكدســـة وأحجـــارُ

فنرى هنا الليل، حافظ الأسرار، ونراه يحقق لحظة من أسعد لحظات حياته. ونراه يبدع عندما يعلن أنه وهي ليلة (كشفت لعينينا)، فيورد بذلك تقابلية خلاقة، ثم ينساب في وصف محبوبته.

وتارة أخرى نجد الليل لديه شخصا غامضا، مجهولا، يعايش لحظات لقائه بمحبوبته؛ فيقول في قصيدته (في معبد):(٣١)

علـــى مذبحـــه المعبـــودِ قـــدم طهـــركَ البـــاقي
نـــداءٌ بـــين عينيـــك كهـــذا الليـــلِ مجهـــولُ
يجاوبـــه حنـــينٌ ثـــار فـــي قلبـــيَ مخبـــولُ
فقلـــت الليـــل يـــا مـــن كنـــت عنـــد الليـــل قربانـــا
لنغـــرقْ فـــي دخـــان الجســـمِ أشـــجاناً وحرمانـــا

فنـــــام الضـــــوء خجلانـــــا على مصـــــباح نشـــــوان
قريـــــــرا لا تنبهـــــــه سـوى أنـــــات تحنـــــان
وكـــــان الليـــــل مرتميـــــا على النافـــــذة الوســـــنَى
تلصّـــــصَ خلســـــةً يرنـــــو إلـــــى معبـــــدنا الأســـــني
فشـــــاع السّـــــرُّ بـــــين الليـــــل والأنجـــــم والزهـــــر[٣٢]

فالليل مجهول غامض، إلا إنه شاخص في إنسان، وهو من عادات الرومانسيين، في تشخيصهم الطبيعة، وتجريدهم منها أشخاصا، لهم صفاتهم المعنوية والمادية؛ فهذا الليل يرتمي على النافذة، وهو يراقب مشهد اللقاء بين المحبوبين.

ووقفة أخرى مع إبراهيم ناجي مع رائعته، الأطلال يقول:

يـــا لمنفيـــين ضـــلا فـــي الوعـــور دميـــا بالشـــوك فيهـــا والصـــخور
كلمـــا تقســـو الليـــالي عرفـــا روعة الآلام فـــي المنفـــى الطهـــور
طردا من ذلك الحلم الكبيـــر للحظـــ ـــوظ الســـود والليـــل الضـــرير
يقبســـان النـــور مـــن نفســـيهما كلمـــا قـــد ضـــنت الـــدنيا بنـــور

فهنا يرى الليل شخصا قاسيا، وهنا يقصد بها الأيام، وأحداثها، وإن غلب الليل على النهار، ليكسبها معنى الظلام والمخاوف، ويَسِمُه مرة أخرى بالعمى والإنسان الكفيف.

وفي قصيدته (الليل موعدنا)، خصص الليل للقاء؛ لما فيه من ستر للأسرار، ومهتبل لبث المشاعر، والأحاسيس، فهو يقول:

طوَى السنينَ وشـقَّ الغيـبَ والظـُّلما بـرقٌ تألـَّـقَ فـي عينيـكِ وابتسَـمَا
يا سَاريَ البـرْقِ مـن نجمـيْنِ يُـومِضُ لي مـاذا تُخبّـئُ لـي الأقـدارُ خلفهُمَـا
أجئـتَ بـي عَتَبَـاتِ الخُلـدِ أم شَـرَكًا نصبْتَ لي مـن خِـداع الـوَهْمِ أمْ حُلُمـا
وكيـفَ يُبرئُنـي مـن لسـتُ أسـألُهُ بُـرْءًا وأوثِـرُ فيـه السُّـهْدَ والسَّـقَمَا
لـو أنّ للمـوْتِ أسـبابًا تُقرِّبُنـي إلـى رِضـاكَ لهـانَ المـوتُ مُقتَحَمـا
إنَّ الليالي التي في العُمـرِ منـكَ خَلـتْ مـرَّتْ يَبَابًـا وكانـتْ كلُّـهَا عَقَمـا
تلقَّـتَ القلـبُ مكرُوبًـا لهـا حَسِـرًا وعـضَّ مـن أسَـفٍ إبْهَامَـهُ نَـدَما

وإن يممنا وجوهنا شطر، أحد أقطاب الرومانسية شاعر الكوخ محمود حسن إسماعيل نجده إزاء الليل، وهو يحمله مضامين الرومانسيين، فهاهو في قصيدته نداء الليل، يرى من الليل إنسانا له كيانه وإرادته، ثم يكشف لنا عن نفسه أنه هو الليل،[٣٣] فيقول:[٣٤]

إذا ما الليل ناداك
وغنّى حول دنياك
نشيد المغرب الباكي
فهبّي وانشري عطرا
على أحلامك الحيرى
لعلّ جراحها تبرى
وكوني في الدّجى سحرا
يهزّ الليل إنشادا
ويسعد عمري الشّاكي

أنا الليل الذي نادى
وما غنّيت إلاّك
...
أنا الرّوح الذي طار
ليبعث حين يلقاك
أنا الليل أنا الرّيح
أنا اللحن أنا الرّوح
فهات سحر نجواك

ولا غرو في ذلك؛ إذ هو يتحدث عن نفسه فيسمع ضمن ما يسمعه: " حيث سمعت من أنغام الطبيعة لغة الطيور ألتي كانت أول إيقاع موسيقي لم تتدخل فيه صنعة الإنسان، يحرك نفسي إلى الإصغاء لعالم الطبيعة، بكل ما فيه ،حتى الجذوع الصامتة والليل الأخرس."[٣٥]

ثم نرى لديه الليل ما هو إلا ظاهرة طبعية تهيمن على الكون:[٣٦]

قلت للماضي : أفق ... فاندفعت
ناره في الشرق روحاً و كيانا
شنها حرباً على أعدائه
أينما ظِلّهمو في الأرض كانا
من شِعاب النيل هَبّت يقظةٌ
نورها لم يبق لليل مكانا
بارك الله خُطاها فغدت[٣٧]

ولكن كيف يتعامل شاعر من عظماء الشعر المعاصر، وهو محمود درويش مع الليل، هل وقعه يختلف عن واقع سابقيه؟ أم أنه يسير في طريقهم ذاتها؟ ففي قوله:[٣٨]

وأنـــا أنظـــر خلفـــي فـــي هـــذا الليـــل
فـــي أوراق الأشـــجار، وفـــي أوراق العمـــر
وأحدّق في ذاكـــرة المـــاء، وفـــي ذاكـــرة الرمـــل
لا أبصـــــر فـــــي هـــــذا الليـــــل
إلا آخـــــر هـــــذا الليـــــل
دقـــات عمـــري تقضـــم عمـــري ثانيـــة ثانيـــة
دقـــات عمـــري تقضـــم عمـــري ثانيـــة ثانيـــة
لم يبق من الليل ومني وقت نتصارع فيه.. وعليـــه
لكـــن الليـــل يعـــود إلـــى ليلتـــه
وأنـــا أســـقط فـــي حفـــرة هـــذا الظـــل

وليل محمود درويش هنا لا بدّ أن يختلف عن ليل سابقيه، ومهما توقفنا عند ليل الشعراء إلا أنا نرى أن الليل يوحي لهم بزمن، وهمّ، وحياة، وفتور، وقلق، وظل، وظلام، وعدو، ومع ذلك يتجاوز البياتي ليله بقوله:[٣٩]

ودفنـــت فـــي جـــنح الظـــلام صـــباحي
وحطمـــت مـــن فـــزع الـــرؤى مصـــباحي
ونهـــزت فـــي نهـــر الظـــلام مشـــاعري

حتـــــــى تخضـــــــب مـــــــاؤه بجراحـــــــي

وتبقى الرحلة مع الليل طويلة، وجميلة، ولحظة انتظار عند كثير من الشعراء..

وهكذا تمضي الحياة بي
أعيش في انتظار
هل..
لحظة مشرقة في ظلمات الليل
أو.. لحظة هادئة في غمرة النهار

والليل هنا خيمة شفافة ناعمة، فهذا الشاعر العربي غازي القصيبي يرى الليل باباً من أبواب الحياة، ويقول في قصيدته الفجر الأحمر:[٤٠]

كانت تغني الشوق.. والليل ...الخليجي.. وفلاحين مساها
اشتعل
وكنت في الليل الخليجي أحس
أنني
أخرج من عباءة الإعياء والفتور والملل
وأرتمي بين يديها
موجة من الجذل

وكما نرى خرج الشاعر هنا من الإعياء والفتور والملل إلى عالم الأحلام والحب والمتعة والسرور، ومثل ليل غازي القصيبي كان ليل عمر أبي ريشة:

عمـــــر ونعـــــم ياخيـــــام تلفنـــــي صـــوب العبيـــر ويـــا نجـــوم تســـامري
نثـــراً شـــفوف الليـــل حـــول جـــدائل لمعـــــانق وســـــواعد لمخاصـــــري
يا طيب ما اختصـــرا رســـالات الهـــوى فيـــه ويـــا طيـــب الصـــدى المتطـــاير

وقد يضفي بعض الرومانسيين على المناظر الطبيعية مظاهر آلهية، فيتحول حبه إلى عبادة، ويزعم أنه يرى الله في الأشجار والرياح، والصخور والأزهار، والنسمات والأمواج، وينتهي من ذلك إلى أن الطبيعة هي الصورة المحسوسة للألوهية، ومن هؤلاء من يزعمون أن الله في الطبيعة أو هو الطبيعة، والشابي أقرب الشعراء الذين تمثلت فيهم روح الرومانسية ومظاهرها.

نتائج البحث:

شكل الليل مصدر إلهام الشعراء على مدار الشعرية العربية، ولعل دارس القصيدة العربية، قد لا يجد عناء في تتبع هذا الموضوع ضمن أولياته وتمظهراته الفنية.

فإن الليل باعتباره صديق الشعراء، وملاذاً آمناً للتعبير عن خلجات الصدر ومكنونات الروح، جعلت منه القصيدة رمزها ومرموزها المتخيل، القادر على نقل حزمة الأحاسيس إلى رؤى وإيحاءات وصور بلاغية، حيث نجد الشاعر مبدعاً، يتفنن في تصوير الليل وشحن طاقاته بالصور التشبيهية، التي تنقلنا إلى المناخ العام الذي كان يعيشه الشاعر بكل صدق، ومن أهم ما توصل إليه من نتائج:

- الليل ظاهرة كونية عظمى تتجلى فيها عظمة الخالق، واقتداره على تحقيق التوازن المنشود بين مخلوقاته.لليل فوائد جمة تتساوى فيها جميع المخلوقات، منها ما اكتشفه العلم الحديث ومنها ما يخفى.

- احتل الليل مكانا واسعا في قصائد الشعر العربي، وهو ما يدل على أنه من الموضوعات الشعرية التي أثارت مخيلة المبدع.
- الليل في التجربة الشعرية يتلون بألوان الشاعر النفسية ورؤيته الذاتية؛ فيصبح في إطاره النفسي، متعدد الألوان، والسمات وذا أوجه متغايرة، تنسجم وحالات النفس، وتتعدد بذلك دلالاته، وتتباين تبعا لتباين أوجه علاقات الشاعر به؛ ليصبح وجها آخر للأنا، يموج بالدلالات التي تتساوق مع انفعالها، وحالاتها الشعورية المختلفة.
- الرومانسية مذهب شعري بارز كان له عظيم الأثر في إحداث التجديد في العصر الحديث على المستوى اللفظي والمستوى المعنوي.
- امتزاج ظواهر الطبيعة امتزاجا لا نستطيع الفصل بينها في أدب الرومانسية.
- من أبرز خصائص الرومانسيين إسقاط معاناتهم، وخلع مشاعرهم على الطبيعة، فتصبح هي وهم كيانا واحدا.
- اتفق جميع شعراء الرومانسية في نظرتهم لليل، فهو الملهم والصاحب ومثير الإبداع والخلق، ولا يخلو نتاج شاعر منهم من الحديث عن الليل وآثاره.

Abstract

Allayl Fi Alshier Alruwmansii (analytical study critical)

By Mona Mohammed Abdullah Abuhala

The night was filled with his expected home in the Arabic poems; which confirms that it is a poetic and inspiring theme of the imagination of the Arab creator. The Arab poets, including the old and the modern, addressed him, and most of the night appeared in romantic poetry. Why not? It is the forum of lovers if they meet, and their masculine, if they separate, and the phenomena of nature has been absorbed in a fluid flow, it is still in the romantic literature, and the most prominent features of romance drop their suffering and take off their feelings on the natural; But he did not see what he saw in others; they almost agreed in their view of the night, that he is inspiring and authoritative and creative creativity and literature; his poems came inlaid with the night and its effects on them, this research came to discuss the secrets of the night rhetorical, and literary in their poetry.

key words:

Self-literature, Romantic poetry, Comparative literature, Night.

الهوامش

(١) ينظر: الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: د. محمد حسين فهمي الشافعي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٨م. وينظر: مفصل آيات القرآن ترتيب معجمي، تصنيف: د.عبدالصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

(٢) الليل في الشعر الجاهلي" ملامحه ودوره الفاعل في أشعار الجاهليين: د.نوال مصطفى إبراهيم، دار اليازوري العلمية، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٣م. ص١٥

(٣) المفضليات: المفضل محمد بن يعلي بن سالم الضبي، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، (د.ت). المفضلية ٣٦

(٤) شرح المعلقات السبع: الزوزني، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م. ص ١٨٩

(٥) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩، (د.ت). ص ٢٥٣
(٦) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٦، (د.ت). ص ١٥٤
(٧) شرح ديوان الفرزدق: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٣م. ج٢/ ٦١٦
(٨) شرح شعر المتنبي: ابن الأفليلي، تحقيق: د.مصطفى عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م. السفر الثاني/ ١٥٥
(٩) شروح سقط الزند: التبريزي والبطليوسي والخوارزمي، تحقيق: مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ١٩٨٧م. ص٣٣.
(١٠) أبو الحسن الحصري القيرواني: محمد المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٣م. ص١٤٣
(١١) الرومانتيكية، د.محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت). ص ١٥٨
(١٢) ديوان فدوى طوقان "وحدي مع الأيام"، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٧٤م.ص ١١٢
(١٣) الرومانتيكية: ص١٥٠
(١٤) أبو القاسم الشابي "شاعر الحب والثورة" دراسة ومختارات: رجاء النقاش، دار القلم، بيروت، لبنان، ط١، (د.ت). ص ٢٢
(١٥) المرجع السابق: ص٧٨
(١٦) المرجع السابق: ص ٨٠
(١٧) الرومانتيكية: ص١٥٢
(١٨) أبو القاسم الشابي: ٧٨
(١٩) الشابي شاعر الحب والحياة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م. ص ٤٧
(٢٠) المرجع السابق: ٥١
(٢١) دراسات في الشعر العربي المعاصر، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٧ ، (د.ت). ص١٠١
(٢٢) الشابي شاعر الحب والحياة، ص ٥٦
(٢٣) المرجع السابق: ٥٨
(٢٤) الرومانتيكية: ص ١٥٤
(٢٥) المرجع السابق: ص ١٥٥
(٢٦) مجلة الرسالة: مقال بعنوان: أحقا مات على محمود طه؟! أحمد حسن الزيات، العدد ٨٥٦ بتاريخ ١٩٤٩/١١/٢٨
(٢٧) دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص: ١٠٣
(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٠٥
(٢٩) الرومانتيكية، ص ١٥٤
(٣٠) شعر إبراهيم ناجي الأعمال الكاملة، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦م. ج١/ ٢٧
(٣١) شعر إبراهيم ناجي (دراسة أسلوبية بنائية)، د. سعد الجيار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٢٠
(٣٢) شعر إبراهيم ناجي، الأعمال الكاملة، ج٤/٢٤
(٣٣) في الأدب الحديث: عمر الدسوقي ، دار الفكر ، بيروت ، ط٨، ١٩٧٣م.
(٣٤) الأعمال الكاملة محمود حسن إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤، ج٣/٤١٢
(٣٥) محمود حسن إسماعيل: سلوان محمود وعزت سعد الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.، ص٢٠
(٣٦) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل : د. مصطفى السعدنى، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ط١، ٢٠٠٥م. ص ١١٥

(٣٧) محمود حسن إسماعيل: الأعمال الكاملة، ديوان نار وأصفاد، ص ٩٥٤ – ٩٥٣
(٣٨) ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.ص ٩
(٣٩) ديوان البياتي: دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٥ ٢٧٨/٢
(٤٠) غازي القصيبي، ديوان حديقة الغروب، العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٧، ص١١٤

مصادر البحث ومراجعه:

١. أبو الحسن الحصري القيرواني: محمد المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٣م.
٢. أبو القاسم الشابي "شاعر الحب والثورة" دراسة ومختارات: رجاء النقاش، دار القلم، بيروت، لبنان، ط١، (د.ت).
٣. الأعمال الكاملة: عبدالوهاب البياتي: دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
٤. الأعمال الكاملة محمود حسن إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
٥. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٦، (د.ت).
٦. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩، (د.ت).
٧. التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل : د. مصطفى السعدنى، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ط١، ٢٠٠٥م.
٨. حديقة الغروب، غازي القصيبي، العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٧م.
٩. دراسات في الشعر العربي المعاصر، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٧ ، (د.ت).
١٠. الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: د. محمد حسين فهمي الشافعي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٨م.
١١. ديوان الجداول، إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين، ط١٥، ١٩٨٢.
١٢. ديوان فدوى طوقان "وحدي مع الأيام"، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٧٤م.
١٣. ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
١٤. الرومانتيكية، د.محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
١٥. الشابي شاعر الحب والحياة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
١٦. شرح ديوان الفرزدق: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
١٧. شرح شعر المتنبي: ابن الأفليلي، تحقيق: د.مصطفى عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
١٨. شرح المعلقات السبع: الزوزني، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.
١٩. شروح سقط الزند: التبريزي وأخرون، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م.
٢٠. شعر إبراهيم ناجي الأعمال الكاملة، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦م.
٢١. شعر إبراهيم ناجي (دراسة أسلوبية بنائية)، د. سعد الجيار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٢٢. الشعر العربي في المهجر أمريكا الشمالية، إحسان عباس ومحمد نجم، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.
٢٣. في الأدب الحديث: عمر الدسوقي ، دار الفكر ، بيروت ، ط٨، ١٩٧٣م.
٢٤. اللؤل في الشعر الجاهلي" ملامحه ودوره الفاعل في أشعار الجاهليين: د.نوال مصطفى إبراهيم، دار اليازوري العلمية، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٣م.
٢٥. محمود حسن إسماعيل: سلوان محمود وعزت سعد الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.
٢٦. مفصل آيات القرآن ترتيب معجمي، تصنيف: د.عبدالصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٢٧. المفضليات: المفضل محمد بن يعلي بن سالم الضبي، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، (د.ت).